"الرابطة" تناقش ظاهرة انجذاب الشباب إلى صفوف التنظيمات الإرهابية

تطرف الشباب المسلم..

جهل وأزمات تربية وهوية

أحدث تنظيم "داعش" والتنظيمات التي في حكمه رجة سياسية كبرى، وخلخلت بشكل عنيف الصورة النمطية الشائعة عن الإسلام لدى المسلمين وغيرهم، وأفلحت بشكل غريب في اجتذاب أعداد كبيرة من الشباب المسلم من البلدان الإسلامية ومن أوروبا أيضا إلى صفوفها.

تحقيق: الزبير مهداد

هذا التأثير الغريب والعميق لتلك التنظيمات المتطرفة، دفع المهتمين من المفكرين والباحثين إلى إجراء الدراسات الهادفة إلى إيجاد تفسير لاحتضان بعض فئات الشباب المسلم للفكر الإرهابي، بالبحث في الظروف الاقتصادية والاجتماعية لهؤلاء الشباب، وتكوينهم النفسي والعاطفي وقناعاتهم التي غرستها فيهم الخطابات المتطرفة، وإذ أفحلت هذه الدراسات في وضع الأصبع على مكمن الداء، واقتراح بعض العلاجات الممكنة، فإن عوامل الجذب التي استهوت الشباب المغرر بهم في أوروبا تظل غامضة.

نحو خمسة آلاف شاب تخلوا عن ظروف الحياة الرغيدة في أوروبا التي ولدوا وتعلموا وعاشوا في أحضانها، نبذوا كل ذلك خلف ظهورهم والتحقوا بميدان المعارك في سوريا والعراق وليبيا، يرفعون لواء العنف ويحاربون تحت ظله. (حسب تقرير نشرته جريدة الغارديان في أغسطس/ آب ٢٠١٥).

والسؤال الذي يفرض نفسه، كيف تمكنت التنظيمات الإرهابية المتشددة من إقناع شباب أوروبي بنبذ نمط حياته المترف وتبني الأفكار المتشددة، والانخراط في صفوف

الإرهاب، على رغم مخاطره الجادة؟

كثيرة هي الكتابات والتحليلات والقراءات المتعصبة التي أصرت على إلصاق التهمة بالإسلام نفسه، واصفة إياه بأنه دين العنف والدماء، وطبيعته القتالية هي التي تغذي الإرهاب، في حين أن كتابات أخرى منصفة حرصت على النظر بنزاهة وتجرد وموضوعية إلى الظاهرة، وبرأت الإسلام من تهم العنف التي ألصقت به.

أوليفييهروا المستشرق الفرنسي، الذي خبر منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، يرفض هذه التهم الموجهة إلى الإسلام، مستدلاً على رفضه بأن داء التطرف لم يصب سوى قلة من الشباب المسلم، الذين يقطنون في القرى الفرنسية، وليس لهم تواصل مع المسلمين، الذين يعدون بالملايين في أوروبا.

وأوضح المستشرق، أن طبيعة الشباب الذين ارتموا في أحضان الجماعات الجهادية، تفيد بأنهم لم يكونوا مندمجين حتى داخل المجتمعات الإسلامية في أوروبا، ولا يمارسون الشعائر، بل كانوا يعيشون على الهامش، ومنهم مدمنو مخدرات وكحول، قبل أن ينتقلوا فجأة ومباشرة إلى الفكر الجهادي.

«الرابطة»، تحاول في هذا الملف تفسير هذا الإشكال، بالاستعانة بباحثين بارزين من أوروبا، قد استغرقهما هم التفكير في الموضوع نقاشا وبحثا، وحظيت كتاباتهما وآراؤهما بكثير من الحوار والقبول، وهما: الدكتور التجاني بولعوالي: الباحث المغربي الهولندي في قضايا الإسلام والغرب وفلسفة التعددية وحوار الأديان؛ والدكتور يان يابدا راوتر: مستشرق هولندي وأستاذ الدراسات الإسلامية والشرقية في جامعة تلبورخ بهولندا.

فئتان من "المتطرفين" المسلمين!

يبدأ الدكتور التجاني بولعوالي في سياق تفسيره للعمليات الإرهابية التي ينفذها الشباب المسلم في أوروبا، بلفت إلى النظر إلى وجوب التمييز بين فئتين من «المتطرفين» المسلمين المنحدرين من أوروبا، «حتى نؤسس رؤية واقعية حول هذه الظاهرة»، وفق قوله.

ويوضح أن «الفئة الأولى، يمثلها شباب مسلم بالانتساب، يظل في تربيته وتكوينه بعيداً عن الإسلام؛ عقيدة وتدينا ومعاملات، ثم يحدث منعرجا في حياته فإذا به فجأة يمسك بخيوط إسلام سطحي وعرضي، تعرف عليه بواسطة

د. يان يابدا راوتر

شبكات التواصل الاجتماعي أو عن طريق بعض الدعاة والأئمة بالغرب، يستغلون عاطفته الدينية وجهله بحقيقة الإسلام، فيعرضونه لعمليات غسل دماغ ويشحنونه بالفكر المتطرف الذي يتأسس على نفي الآخر المختلف دينياً أو إيديولوجيا، فتتغذى فيه مشاعر الكراهية والعنف واللا تسامح، وأخيراً تجنيده لفائدة التنظيم المتطرف».

«وبعد مرور ردح من الزمن - والحديث لا يزال للدكتور التجاني - يكتشف الكثير من الشباب المغرر بهم أن ما يقومون به يتعارض جذريا مع رسالة الإسلام والقرآن والسنة. ودليل ذلك فرار العديد من المجندين في صفوف «داعش»، فمنهم من تمكن من العودة إلى وطنه، ومنهم من تعرض للتصفية».

أما الفئة الثانية، وهي الأخطر، فيختار فيها الشباب الانتساب إلى الجماعات القتالية عن اقتناع وطواعية، وقد تلقى تربية إسلامية تقليدية في المنزل أو المؤسسة التعليمية الإسلامية، وفيها تعلم أبجديات الإسلام الأساسية، غير أنه يرى في الغرب عدوا للإسلام، ويؤسس رؤيته على جملة من العناصر مثل فكرة المؤامرة الغربية، ودعم الغرب للحركة الصهيونية في فلسطين، والحملات المغرضة على الإسلام والمسلمين، وضرب الخناق على الأقليات الإسلامية.

يؤكد بولعوالي، أن هذه الفئة تتبنى العمل الإرهابي وتقدم عليه وهي مقتنعة به، وتمارس قطيعة مع المجتمع الغربي الذي ولدت ونشأت وترعرعت فيه، وترفض بأن تنتمي بشكل أو بآخر إلى الغرب، وعوض ذلك تؤمن بالانتماء المطلق إلى

الإسلام العالمي الذين يتجاوز ما هو محلي، بل أكثر من ذلك، تدعو هذه الفئة إلى مواجهة المسلمين المختلفين معها إيديولوجيا، وغير المسلمين الذين ينبغي لهم أن يختاروا، بين الدخول في الإسلام أو الخضوع لسلطتها، ويتم هذا كله في إطار التنظيم الجهادي الذي تديره هذه الفئة.

وإذا كانت الفئة الثانية تبرر اجرارها نحو الإرهاب والعنف، بجملة من العوامل التاريخية (الحروب الصليبية، الحركة الاستعمارية) والسياسية (الصهيونية، اضطهاد المسلمين) والإعلامية (الحملات المناوئة للإسلام، صورة الإسلام).

فإن الفئة الأولى استدرجت نحو تغذية الإرهاب استجابة لعاطفة دينية استغلها الوعاظ المتطرفون الذين يتباكون حول «ما يتعرض له الإسلام من حملات إساءة» و «إهانة المسلمين» و«وجوب الانتصار لدين الله»، ويقدمون فهوما منحرفة وخاطئة للنصوص الإسلامية، ثقة في جهل المتلقين لحقيقة الإسلام ولعجزهم عن الوصول إلى منابع الفكر الإسلامي وأصوله الكبرى.

ويتابع الدكتور التجاني، «لا بد من الإشارة هنا إلى أن هؤلاء الوعاظ المتطرفين، ينتقون ضحاياهم من الشباب الفاشل دراسيا ومهنيا، والمنحدرين من عائلات تعاني التفكك والخلافات الأسرية، والهشاشة والفقر المالي».

عائلات مكسورة.. وتلقين إيديولوجي:

المستشرق الهولندي الدكتور راوتر، يؤكد أيضا أن الكثير من المنساقين وراء التطرف والمشاركين في العمليات الإرهابية ينحدرون من عائلات مكسورة، تعاني التشتت والطلاق (كدس)، على الرغم من أنهم قد يكونون استفادوا من تعليم جيد، ويعيشون أوضاعا اجتماعية واقتصادية جيدة أيضا، فالعامل النفسي والاجتماعي يلعب دورا مهما في ميل الشباب نحو التطرف.

يرجح راوتر، أن هذا العامل، هو الذي يسهل اصطيادهم من طرف المتربصين الذين يخدمون التنظيمات الإرهابية ويغذونها بالمجندين، الذين يلتقطونهم من بين رواد المساجد، ويزينون لهم «الجهاد» و«الاستشهاد» وفق منظورهم باعتباره السبيل الأوحد والمضمون للتطهير، ليصبحوا مسلمين حقيقيين جديرين بالجنة.

ويقدم مثالا على ذلك بالانتحاري الهولندي «سلطان بورزيل» الملقب بأبي عبدالله الهولندي ذي التسعة عشر ربيعا، الذي فجر نفسه في بغداد، وأزهق أرواح أزيد من عشرين شخصا من أجل تنظيم الدولة الإسلامية، مؤكداً أنه كان ضحية التلقين الإيديولوجي الخاطئ؛ فالمتطرفون قد يكونون شبابا «طبيعيين»، ثم يصبحون بين ليلة وضحاها متطرفين نتيجة التلقين الأيديولوجي الذي يستثمر الخلفيات الشخصية السلبية أحيانا.

مساءلة الأسرة السلطوية:

يشدد بولعوالي وراوتر، على أهمية التنشئة والاستقرار العائلي، باعتباره الآلية القوية لإبراز وترسيخ الهوية والقيم، ففي الأسرة وبين أحضانها تتم تربية الأبناء وتنشئتهم الاجتماعية وإكسابهم الأدوار والاتجاهات والقيم المتوقعة من أفراد المجتمع وتعلم آليات التكيف مع المحيط الاجتماعي.

فهذه التنشئة التي من غاياتها تكوين فرد قادر على الانخراط في المجتمع والإسهام فيه، قد تحيد أحيانا عن مهمتها وغاياتها ما ينجم عنه خلق شخصية متناقضة ومنفصمة سوسيولوجيا وسيكولوجياً، تميل إلى كل أنواع الانحراف والتشرد، وهو ما تعانيه حقا الأسر المسلمة في الغرب.

ويؤكدان أن غياب دينامية داخلية كمطلب تربوي للأسرة انعكس سلبا على بناء الهوية النفسية الاجتماعية لدى المراهقين، مع بروز حدة التمزق في بنائهم النفسي الاجتماعي، من جراء طغيان النزعة البطريركية والسلطوية على عقلية الوالدين أثناء تعاملهم مع الأبناء، اعتباراً لوضعيتهم النفسية وانشغالاتهم الذاتية بظروفهم الاندماجية؛ واعتبارا أيضا لتمثلاتهم النفسية الاجتماعية السلبية للطفل والبيئة الثقافية المحيطة به.

وقد أدت مثل هذه المواقف والتمثلات إلى حالة من التمزق والاستلاب في صفوف الأطفال والشباب، وصلت إلى مستوى بروز ردود أفعال ذات صبغ انتقادية للوضع المعيش كتعبير عن عدم الرضا، تطورت إلى تمرد وعنف على كل سلطة.

وقد كشف تقرير صدر عن «BBC» عن اضطراب الهوية لدى عدد من المشاركين في العمليات الإرهابية، فهؤلاء المهمشون اجتماعيا يبحثون عن هوية حقيقية وراسخة، وهو ما يجدونه في أحضان التنظيمات الإرهابية التي تمنحهم شعورا بالأهمية وهوية واضحة بدل الهوية الهلامية الباهتة.

مشكلات الهوية وغياب الفخر الوطني:

وفي شأن علاقة مشكلات الهوية بتورط الشباب المسلم

في الغرب بالإرهاب، يؤكد الدكتور يان راوتر على أهمية مسألة الهوية في تفسير سلوك الإرهابيين الشباب، ويقدم على ذلك مثالا للشباب المنحدر من البلدان المغاربية، التي تتميز بهويات كثيرة، أمازيغية وعربية، وإسلامية، وعلمانية ومحافظة وتقدمية وغير ذلك، فكثرة الهوايات المتاحة تجعل مسألة الهوية الشخصية غير واضحة المعالم. ثم إن ادعاءات المجموعات المختلفة في هذه المجتمعات حول «الهوية» أدت إلى انقسامات كبيرة، والأسوأ أنها تؤدي إلى غياب الفخر الوطني المشترك بدمج الهويات ببعضها البعض.

ويلفت الدكتور يان، إلى أن الكثير من الأوروبيين المنحدرين من المغرب ينتجون أعمالا فنية وأدبية جميلة أو يجدون طرقهم في أعلى المستويات السياسية، ولكن في الوقت نفسه نجد أن الكثير من المهمشين في بلدهم لا يستطيعون التخلص من الشعور بالتهميش والنبذ حتى في دول الاستقبال بأوروبا.

ولهذا يجب أن يقرروا بخصوص إقامتهم في دول أوروبا، سواء كانوا مجرد مهاجرين أو لاجئين، وعليهم أن يلتزموا القيم والقواعد الأخلاقية التي اختارها الأوروبيون، فرفضها يمكن أن يؤدي إلى أزمة الهوية وإلى نشوب صراعات.

في حين يشير الدكتور التجاني، إلى أن الشباب المسلم في أوروبا لا يعاني بمجمله مشكلات الهوية، فهناك من يعتري هويته الخلل، ويشعر بأنه منقسم بين هويتين متصادمتين: إسلامية موروثة وأخرى غربية علمانية، إلا أن تعاطيه مع التعددية الاجتماعية وقبوله للحق في الاختلاف تجعله متسما بالتسامح وقبول الحوار.

ويضيف: «كما أن فعل الإرهاب لا يتعلق بهلامية الهوية لدى الفئة التي تلقت تنشئة إسلامية وتشربت الثقافة الإسلامية في المساجد وعلى يد الأئمة والوعاظ، ولكنها اختارت الإرهاب بوعي وعن اقتناع».

«أما الفئة التي غرر بها فيمكن أن يكون مشكل الهوية سببا في ذلك، لأن هذه تشهد حقا أزمة هوية، وتحمل هوية هلامية باهتة، وقد أدت مختلف العوامل السيكولوجية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإعلامية إلى سقوطها في براثن الإرهاب ومستنقعات التطرف».

الاندماج ترسيخ وثراء للهوية:

في ما يتعلق بإدماج الشباب المغترب داخل المجتمع الأوروبي، وتخليه عن هويته، كحل ملائم للقضاء على التطرف، يؤكد الدكتور بولعوالي أن إدماج الشباب المغترب داخل المجتمع الغربي لا يعني بالضرورة تخليه عن هويته الأصلية، لأن صهره في بوتقة المجتمع الغربي وتخليه عن هويته يؤدي إلى إدماج سلبي لا يخلو من آثار ضارة.

ويلفت إلى مسألة مهمة، هي أن الهوية ذات بنية مطاطية تجعلها تستوعب مختلف العناصر، وتتلاءم بحسب ظروف المكان والزمان.

ومن هذا المنطلق، يرى الدكتور بولعوالي أن الاندماج في المجتمع الأوروبي لا يعني فقدان الهوية الأصلية أو جانبا منها، بل العكس، تترسخ الهوية الأصلية أكثر وتغتني بعناصر إضافية أخرى، وتتحول هوية المسلم الذي يستقر في أوروبا من البعد الأحادي العربي أو التركي أو الأمازيغي إلى البعد التعددي الذي يستوعب إلى جانب المكونات الدينية والثقافية واللغوية الأصلية عناصر أخرى ثقافية ولغوية وسياقية.

وبالمثل يرى الدكتور يان، أن لا ضرورة تقتضي على الشباب المسلم التخلي عن هويته الأصلية للعيش في أوروبا، فوحدة الهوية ليست شرطا للتعايش في أي مجتمع، لأن اختلاف الهويات قد يؤدي إلى التنوع الثقافي الإيجابي المثمر، وهو الأمر الحاصل في أوروبا حاليا، من خلال التعبيرات الجميلة في الفن والأدب التي ينجزها مواطنون منحدرين من أصول إسلامية.

ويضيف الدكتور التجاني موضحاً: «أن الإشكال القائم اليوم عند مجموعة من المسلمين الأوروبيين هو كيفية استثمار البعد الأوروبي لتمتين هويتهم الأصلية ليس على المستوى الصوري فقط، بل على المستوى الواقعي أيضا».

وختاما، يمكن أن نستخلص جملة من التحديات التي تواجه الشباب المسلم في أوروبا، أبرزها: جهلهم بحقيقة الإسلام التي تدعو للحوار والسلم، وترسخ احترام الحياة والكرامة الإنسانية وتحمي الحق في الاختلاف؛ علاوة على ظروف التنشئة غير السوية التي يخضعون لها في أسرهم التي تعاني في الغالب مشاكل جمة تهدد استقرارها وتماسكها، ما يؤثر سلبا في شخصيات المراهقين المنحدرين منها.

فضلاً عن التمزق الهوياتي وعدم تشكل هوية واضحة المعالم، تلتقي مع الهويات الأخرى المكونة للنسيج الاجتماعي في أوروبا، وتكون مصدر فخر واعتزاز لحاملها، تحميه من الانزلاق نحو الاستجابة للدعوات المغرضة إلى العنف والإرهاب والتي تستغل ظروف الشباب والمراهقين النفسية والمعرفية والعاطفة الدينية.